نصير الدين الطوسي

الحكيم الرياضي الفلكي

هو محمد بن محمد بن الحسن المتوفى سنة اثنتين وسبعين وستمائة ببغداد ، والمدفون بمشهد الإمام الكاظم موسى بن جعفر الصادق الذي تنكر إمامته الاسماعيلية الآغاخانية والبهرة ويرونها منحصرة في اسماعيل أو ولده محمد الحبيب ، وضريح النصير من مزارات الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، بعد زيارة الإمام الكاظم وفي هذا دلالة لا تقبل الرد على أنه من رجالاتهم ومصنفاته في المذهب الإمامي سواء أكان في أصول عقائدهم أم في فروعها من الكلام والفقه الإمامي بالغة حد الاشتهار كتصانيفه في العلوم الفلسفية والرياضية والفلكية .

ومن تلامذته في هذه العلوم الشيخ جمال الدين ابو منصور ، الحسن بن سديد الدين ، يوسف بن علي بن المطهر الحلي المعروف بين الإمامية بلقب العلامة ، وقد انتهت اليه رئاستهم في المعقول والمنقول ، والفروع والاصول ، وأستاذه النصير في العلوم العقلية هو تلميذه في الفقه ، وكانت وفاته سنة ست وعشرين وسبعمائة قبل وفاة معاصره العلامة ابن تيمية بسنتين ، وكانت بينهما مناظرات كتابية ، وكتابا النصير قواعد العقائد وشارحه العلامة الحلي المطبوع في ايران وتلخيص المحصل للامام فخر الدين الرازي المطبوع في مصر ، وكلاهما في علم الكلام صريحان كل الصراحة بامامية الاثني عشرية .

ترجم له علماء الإمامية من معاصريه والمتأخرين عنه في كتبهم الرجالية ترجمات حفيلة ، كما ترجم له الكتبي في كتابه فوات الوفيات ولم ينسبه أحد منهم إلى الاسماعيلية ، ويقول تلميذه العلامة في إجازة له عند ذكره :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان هذا الشيخ أفضل أهل عصره في العلوم العقلية والنقلية له مصنفات كثيرة في العلوم الحكمية والأحكام الشرعية على مذهب الإمامية .

وقد اجتمع بالحلة بالإمام المحقق الأول الشيخ نجم الدين جعفر بن الحسن رئيس علماء الإمامية في عصره وحضر دروسه في علوم الشريعة وناقشه في بعض الفروع من علم الفقه ، وبعد فان اماميته وكونه من الاثني عشرية مما لا مجال للريب فيه .

وأما صلته بزعيم الاسماعيلية ركن الدين في حصن (ريز) في بلدة ثون من بلاد قهستان بخراسان فانها كانت بطريق الاعتقال والاكراه للاستفادة من علومه وفنونه ، وأفرج عنه هولاكو وصحبه كما صحب ركن الدين الزعيم الاسماعيلي بعد تدويخه البلاد الايرانية واستيلائه على قلاع الدعوة الى العراق غازيا لبغداد ، وهو مكره على هذه الصحبة كما كان مكرهاً من ركن الدين على المقام معه في قلعته برتبة الوزير والمشير ، وكان له من هولاكو مثل هذه الرتبة ، وذكره في العلم والفضل وأصالة الرأي والتدبير ملء الأسماع والأصقاع ، وشهرته هذه الى شهرته بالعلوم الفلكية التي يراها هولاكو وأمة المغول من وسائل معرفة السعد والنحس كل أولئك مما حبب اليه استيزاره وصحبته الى بغداد .

أما ما كان للنصير من أثر مبرور وعمل مشكور في هذه الصحبة بإنقاذ من أنقذه من سيف هذا الظالم من المسلمين على اختلاف مللهم فقد بلغ عشرات الألوف وما استبقى عليه من الثروة العلمية وكتبها المعرضة للحريق والغرق فقد بلغت مئات الألوف وأما ما خدم به علم الأفلاك فحسبه ابتناؤه قبة ورصداً عظيماً في مراغة ، وقد ولاه هولاكو جميع الأوقاف في سائر بلاده ، وكان له في كل بلد نائب يستغل الأوقاف ويأخذ عشرها ويحمل اليه ليصرفه في جامكيات (رواتب) المقيمين بالرصد ولما يحتاج اليه من الأعمال بسبب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الارصاد وكان للمسلمين به نفع خصوصاً الشيعة والعلويين والحكماء وغيرهم .
قال شمس الدين الحريري : قال حسن بن احمد الحكيم : سافرت إلى مراغة وتفرجت في الرصد ومتوليه علي بن الخواجا نصير الدين الطوسي وكان شاباً فاضلاً في التنجيم وصادفت شمس الدين بن المؤيد العرضي وشمس الدين الشرواني والشيخ كمال الدين الابكي . وحسام الدين الشامي فرأيت فيه من آلات الرصد شيئاً كثيراً منها ذات الحلق وهي خمس دوائر متخذة من نحاس الأولى دائرة نصف النهار وهي مركوزة على الأرض . ودائرة معدل النهار . ودائرة منطقة البروج . ودائرة العرض . ودائرة الميل . ورأيت الدائرة الشمسية التي يعرف بها سمت الكواكب .

وأخبرني شمس الدين العرضي ان نصير الدين أخذ من هولاكو بسبب عمارة هذا الرصد ما لا يحصيه إلا الله تعالى خارجاً عن الجوامك (الرواتب) التي للحكماء والقومة . وقال نصير الدين في الزيج الايلجاني [1] : إنني جمعت لبناء الرصد جماعة من الحكماء . منهم المؤيد العرضي من دمشق . والفخر المراغي كان بالموصل . والفخر الخلاطي الذي كان بتفليس . والنجم دبيران القزويني الى كلام طويل في العناية بهذا الرصد لخصنا منه هذه الجملة من فوات الوفيات فأنت ترى من هذا العرض القليل من مآثر النصير التي ما كان يتوقع تحقيق جزء منها لولا صحبته واستيزاره لهولاكو اللذان كانا للمسلمين رحمة لا نقمة وخيراً لا شرا .

وان من العجيب أن نرى الإمام العلامة ابن تيمية وهو معاصره وممن لا يتعذر عليه تمحيص الحقائق فلا يبخسه حقه وما له من بلاء جميل بخدمة

(١) صوابه الايلخاني نسبة الى (ايلخان) احدى دول سلالات جنكيز خان كما يفهم من قاموس الأعلام لشمس الدين سامي . (لجنة المجلة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الإسلام والمسلمين مما عرضنا منه الى جزء من كل ورشل من بحر في تلك الغمرة التي تكثر فيها الأقاويل وتقام سوق الأضاليل فيقول فيه في رسالته الرد على النصيرية :

«ثم ان التتار ما دخلوا بلاد الاسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيرهم من ملوك المسلمين إلاّ بمعاونتهم ومؤازرتهم فإن مرجع هؤلاء الذين كان وزيرهم وهو النصير الطوسي كان وزيراً لهم بالألموت ، وهو الذي أمر بقتل الخليفة» .

فالنصير على قوله نصيري واسماعيلي ويا بعد ما بين النصيرية والاسماعيلية وهو لا من النصيرية ولا من الاسماعيلية وإنما هو إمامي اثنا عشري .

هذا ومن يقابل ما عزاه الامام ابن تيمية الى النصير مما يأباه له فضله وحكمته ودينه وعقيدته الإمامية التي ليس من أصولها وفروعها استحلال دماء المسلمين مهما تكن مذاهبهم ومعتقداتهم بما كتبه العلامة محمد بن شاكر بن احمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ قبل وفاة النصير بثمان سنين بكتابه (فوات الوفيات) يجد أن الكتبي ، وقد تأخر عصره عن عصر ابن تيمية ستاً وثلاثين سنة ، كان ما كتبه وقد سكنت العاصفة وأصبح تسجيل حوادث سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية وأسبابها وملابساتها وتمحيص حقائقها في ذمة التاريخ هو المعقول وهو الأحق بالاتباع وبيراءة النصير مما عزي اليه وهو مما لم يعرض له الكتبي بقليل أو كثير .

ان النصير فوق الشبهات ، وهو الذي راض نفسه بالدين المتين والحكمة العالية وباخلاق الكريم الذي يكفي بالتدليل عليه ما أورده الكتبي في فوات الوفيات ، قال : ومما وقف له عليه أن ورقة حضرت اليه من شخص من جملة ما فيها : يا كلب ابن الكلب فكان الجواب . أما قوله : يا كذا فليس بصحيح لأن الكلب من ذوات الأربع وهو نابح طويل الأظفار وأما أنا فمنتصب القامة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بادي البشرة عريض الأظفار ناطق ضاحك فهذه الفصول والخواص غير تلك الفصول والخواص . وأطال في نقض ما قاله . هكذا رد عليه بحسن طوبة وتأن غير منزعج ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة .

أترى مثل هذا الحكيم - في تدينه ووفور عقله ورباطة جأشه وبعد نظره والخلال الفاضلة المجتمعات به التي اطمأن بها الى الوثوق به الزعيم الاسماعيلي وهولاكو وكلاهما اختاره وزيراً ومشيراً مع تباعد ما بينهم من العقيدة والمنازع - يرتكب جريمة لا يجهل مصايرها وما ستجر اليه من المآمي والأسواء سواء فيها المسلم السني والشيعي وكلاهما وقود نارها بل الإسلام عينه مستهدف لنبالها ونصالها والنصير عليهم بأن الخلافة العباسية مهما كان للابس بردتها والمالك لحوزتها من هنات هي رمز للجامعة الإسلامية وممثلة لقوى الإسلام لا جرم أن النصير ليس من المعقول أن يسف هذا الإسفاف فيرتكب مثل هذه الجناية ؟ ؟

وإنا لنرى لزاماً علينا استيفاء لهذا البحث واستجلاء للحقيقة أن نعرض الى الأسباب الواقعية التي أدت الى نكبة الإسلام والمسلمين بسقوط الخلافة العباسية على يد ذلك الغازي الظالم ملخصة من كلمات المؤرخين الثقات الذين عنوا بتدوين أخبارها . وتسجيل دوافعها وحوافزها فمنهم الفخري قال : كان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة . وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعم واللذات لا يراعون له صلاحا .

ومما اشتهر عنه أنه كتب الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب . وفي تلك الحال وصل رسول السلطان هولاكو يطلب منجنيقات وآلات الحصار . فقال بدر الدين : انظروا الى المطلوبين وابكوا على الإسلام وأهله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويقول في مكان آخر : كان مستضعف الرأي ضعيف البطش . قليل الخبرة بأمور المملكة . مطموعاً فيه . غير مهيب في النفوس . ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه بنقضي أكثره بسماع الأغاني . والتفرج على المساخرة . وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب ليس فيه كبير فائدة . وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام . إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال . وكان مكفوف اليد . مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء . وكانت عادة الخلفاء أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم وبذلك جرت سنتهم الى آخر أيام المستنصر . فلما ولي المستعصم أطلق أولاده الثلاثة ولم يحبسهم وهم الأمير الكبير أبو العباس أحمد . والعامة تسميه أبا بكر وليس بصحيح ، وانما سموه بذلك لأنه لما نهب الكرخ نسب الأمر اليه وقيل : إنه هو الذي أشار بذلك .

ويقول أبو الفداء : وكان عسكر بغداد بلغ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم ليحمل الى التتر متحصل اقطاعاتهم . وصار عسكر بغداد دون عشرين الف فارس .

وجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جاري عادتهم فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش .

ويقول ابن شاكر في كتابه فوات الوفيات في ترجمته : وكان (المستعصم) متدينا متمسكاً بمذهب أهل السنة والجماعة على ما كان عليه والده وجده رحمهم الله تعالى ولم يكن على ما كانوا عليه من التيقظ والهمة بل كان قليل المعرفة والتدبير والتيقظ . نازل الهمة . محباً للمال . مهملاً للأمور يتكل فيها على غيره . ولو لم يكن فيه إلاّ ما فعله مع الملك الناصر داود في أمر الوديعة لكفاه ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عاراً وشناراً والله لو كان الناصر من بعض الشعراء وقد قصده وتردد عليه على بعد المسافة ومدحه بعدة قصائد كان يتعين عليه أن ينعم عليه بقريب من قيمة وديعته من ماله فقد كان في أجداد المستعصم بالله من استفاد منه آحاد الشعراء أكثر من ذلك الى غير ذلك من الأمور التي كانت تصدر عنه مما لا يناسب منصب الخلافة ولم تتخلق بها الخلفاء قبله فكانت هذه الأسباب كلها مقدمات لما أراد الله تعالى بالخليفة والعراق وأهله واذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه .

وبعد فقد كان حافزاً لنا الى هذا البحث كلمة وردت في مقال البحاثة الأستاذ عباس العزاوي القيم (تاريخ علم الفلك في العراق) (العلاقات بايران) في الجزء الثاني من المجلد الثامن والعشرين بعزو فيها النصير الطوسي الى الفرقة الاسماعيلية وكأنه تابع ابن تيمية في ذلك والنصير من أقطاب علماء الإمامية كما أوضحناه وللكاتب الشكر على تنبيهنا بمقاله المتمم على دفع تلك الشبهة ودحض ما حام حول النصير من التهم في سقوط الخلافة العباسية وهو منها بريء والحق أحق بالاتباع .

سليمان ظاهر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net